دعوة الإحياء الإسلامي

« وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

(العنكبوت : ٤٦)

بقلم

جمال البنا

دار الفكر الإسلامي

١٩٥ شارع الجيش ــ ١١٢٧١ القاهرة ــ هاتف وفاكس : ٢٥٩٣٦٤٩٤

E-mail : gamal_albanna@yahoo.com
gamal_albanna@infinity.com.eg
www.islamiccall.org



الحمد لله
الذي لا نعبد أحدًا سواه

مُقَدِّمَة

استنقذت هذه الأوراق من ركام الكتابات وخضم المقالات ؛ لأنها تبرز قضية على أعظم جانب من الأهمية والخطورة ، تلك هي امكانية التعايش الإيماني لكل أصحاب الأديان على اختلافها ، بل والتوصل إلى تكوين أممية إيمانية في مواجهة العولمة المتوحشة التي لو تركت لقضت على الأديان جميعًا وما فيها من قيم تمسك المجتمع ، والجِّدة فيها أنها تتقبل المسلم المتمسك بإسلامه ، والمسيحي المتمسك بمسيحيته ، واليهودي المتمسك بيهوديته ، ويمكن أيضًا البوذي وغيره في دائرة واسعة لا تؤثر اختلافات الأديان عليها ؛ لأن الحقيقة الرئيسية فيها واحدة ومشتركة وهي الإيمان بالله والرسل واليوم الآخر ، وهذه خصيصة الدين التي تميزه عن المذاهب والنظريات والفلسفات الأخرى ، ولا اقول إن هذه الرسالة "اكتشفت" أن الله لابد وأن يكون واحدًا ، وأنه من غير المعقول أن يوجد إله للمسلمين ، وإله آخر للمسيحيين ، وإله آخر لليهود ، فهذا ما ترفضه بدائة الفكر ، فنحن لا نعيش في "الأوليمب" اليوناني بآلهته ، إله للحرب وآلهة للحب وإله للشمس .. الخ.

مادام الله واحدًا فكل هذا الخلاف بين الأديان لا معنى له في الحقيقة ، ولابد أنه يعود إلى مواضعات المؤسسات

الدينية أو إلى ملابسات ذاتية تعد طارئة على موضوع حقيقته الرئيسية هي وجود الله .

وبقدر ما في هذا الكلام من صدق يبدو بديهيًا ، فإنه يُعد جديدًا على مألوف كل أصحاب الديانات على اختلافهم ، وعندما نشرت مقالات "الأديان لا تنسخ بعضها بعضًا ولكن تكمل بعضها بعضًا" في جريدة "المصري اليوم" تلقيت اعتراضات ، بل وتسفيهات لا حصر لها ، وقيل إني أغضبت المسلمين ولم أرضِ المسيحيين ، وهذا لأن الواقعة المفجعة أنهم لم يأخذوا حقيقة وجود إله واحد للجميع مأخذًا جادًا ، وحافت الفكرة الذاتية على الحقيقة الموضوعية فاعتبر أصحاب كل دين أن الله هو إلههم وحدهم ، وأن الآخرين ــ بتعبير القرآن ــ "ليسوا عَلَى شَيْءٍ".

إنني آمل أن تفتح هذه الرسالة أفقاً جديدًا من التعايش الإيماني بين كل ديانات العالم ، وأن تكون دعوة لتكوين أممية إيمانية تضم المؤمنين بالأديان كافة لتقف في مواجهة عولمة وحشية تستهدف القضاء على القيم الإيمانية التي تمسك المجتمع ، حتى تصبح الأوطان أسواقاً ، والدول شركات ، والقيمة العظمي هي الاستهلاك .

القاهرة في **رجب ١٤٢٩ هـ** / **يونيو ٢٠٠٨ م**

جمال البنا

الأديان لا ينسخ بعضها بعضًا
ولكن يكمل بعضها بعضًا

(١ ـ ٣)

ـ ١ ـ

الفكـرة المتأصـلة فـي نفـوس جميـع المـؤمنين ـــ دون استثناء ـ هي أن الدين الذي هم عليه هو الدين الصحيح ، هو الأمثل والأفضل بين الأديان ، وهذه هي الحقيقة المسكوت عليها التي لا تنطق بها الشفاه لضرورة المجاملة وعدم الدخول في معارك ولكن ذلك يقر في قلب كل مؤمن ، ويرى أنه أمر طبيعي ، فإذا لم يكن دينه هو الأفضل ، فلماذا إذن يؤمن به ، ولا يؤمن بالآخر .

إن هذا التساؤل الذي يصل إلى حد المسلمات بين الناس يغفل واقعة هامة هي أنه ما من أحد اختار دينه بادئ ذي بدء ، وما من أحد يكلف خاطره دراسة الأديان ومقارنتها لينتهي إلى أن دينه هو الأفضل ، إن الأديان تورث ، وحقيقة أنه مؤمن بدين ، إنما يعود إلى أن أبويه مؤمنان بهذا الدين وأورثاه إياه بمجرد ولادته ولم يكن له شأن إرادي فيه ، وهذا هو مضمون ما قاله الرسول ﷺ من أن كل مولود يولد على الفطرة ، وأن أبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه ، وإذا

كان يدافع عن دينه ويراه الأفضل ، فهذا من منطلق مقوماته ، وليس مقومات الدين .

ومن ناحية الأديان نفسها ، فالأديان جميعًا تقوم على الإيمان بالله ، وهذه هي حقيقة الدين والتي تميزه عن الفلسفة ، ومن غير المعقول أن يكون هناك إله للمسيحيين ، وإله لليهود ، وإله للبوذيين .. الخ ، إن فكرة الإله لا تستقيم إلا عندما تتحول فكرة الإله الإقليمي إلى الله المطلق الذي خلق هذا الكون بأسره وكل ما فيه من آدميين وحيوانات ونبات وجبال .. الخ ، فإذا كان الله واحدًا للجميع ، فمن العبث إقامة الأسوار ما بين الأديان أو ممارسة نوع من التفاضل بينها ، والذي يغير دينه إلى دين آخر ، فإنه في الحقيقة لم يتحول عن الإيمان ، لأنه سيدين في النهاية بالله الذي أنزل الأديان كلها ، والذي هو إله البشرية ، فلا يمكن الفرار من الله إلا إليه ، وهذا العمل لا يعتبر خروجًا ، ولكن تحولاً من دين إلى دين آخر داخل الإطار الواحد للأديان كلها الذي يتمحور حول الإيمان بالله .

وينبثق عن الإيمان بالله قيم مثل المساواة ، والحرية ، والخير ، والعلم ، والصدق .. الخ ، وهذه هي جوهر الأديان وروحها ، وهذه القيم لا تتأثر بنقص مؤمنين بها أو زيادتهم فستظل هي هي .

من ناحية الدين إذن الذي يقوم على الإيمان بالله إله الجميع ، ومن ناحية أن هذا الإيمان يتبلور في قيم موضوعية

لا تتـأثر بقلـة أو بكثـرة المـؤمنين بهـا ، لا يكـون هنـاك معنـى للتعصب وللضجة التي تصطحب بمحـاولات تغيير الأديـان ، بل لا يكون هناك مجال للحديث عن تفاضل ، كما يظهر تمامًا بطلان فكرة أن ديناً ما ينسخ الأخر ، فلو كـان ينسخ حقـاً لمـا كان للآخر وجود ، أما وهو موجود بكثـرة ، فـإن هذا الوجـود نفسـه ينـاقض فكـرة النسـخ ، فضـلاً عن أن الله تعـالى لـو أراد النسخ لأوقعه بطريقته الخاصة ، وهو علـى كل شـيء قدير ، أما أنه لم يوقعه ــ بدليل وجود المسلمين والمسيحيين ــ بأعداد مماثلـة تقريبًـا ، فـإن هذا لـيس لـه إلا نتيجـة واحدة هـي أن الله تعالى لا يريد هذا النسخ ، وهو تفسير الآيـة « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ » (هود : ١١٨) .

* * *

هـذه النتيجـة التـي انتهينـا إليهـا تثيـر الـذهول ، لأنهـا تتنـاقض تمامًا مع الفكر السـائد بين النـاس جميعًـا ، وإذا كانـت صـحيحة فكيف سيطر التعصب علـى عـالم الأديـان ؟ وكيـف حدث أن كانت أكثر الحـروب شراسـة هـي الحـروب الدينيـة ؟ وأن التعصبات الدينية أوجدت وصمة في تـاريخ البشرية هـي محـاكم التفتـيش التـي ظلـت طـوال أربعـة قـرون منـذ اسـتيلاء الأسبان على غرناطة سنة ١٤٩٢م حتى ألغاها نابليون عندما دخل أسبانيا ، ومارست أبشع صـور التعذيب بحجـة خـلاص الروح .

كيف حدث هذا ؟

الرد :

المؤسسة الدينية .

ذلك أن الأديان تتنزل على أنبياء يختارهم الله نماذج للكمال الإنساني ويزودهم بوحي يوجههم ويحول دون انحرافهم ويجعل دورهم مجرد التبليغ دون أن يكون لهم أي سلطة غير ذلك ، فالنبي لا يكون من مسئوليته تحقيق الهداية ، ولكن تبليغ الدعوة ، وبهذا تأخذ طابعًا « موضوعيًا » بعيدًا كل البعد عن النزعة الذاتية

بعد وفاة الأنبياء يقوم أتباعهم بتكوين « مؤسسة » لمواصلة الدعوة ، ولكن هناك فرق كبير بين الأنبياء الموحى إليهم وبين الأتباع الذين يخضعون لضرورات الطبيعة البشرية ، وتكون النتيجة أن تأخذ المؤسسة شكل « المحامي » الذي يؤمن بقضية معينة ولا يعنيه إلا الدفاع عنها ولا يعمل لغير نصرها ، وبالتالي تأخذ المؤسسة طابعًا ذاتيًا قدر ما تبعد عن الطابع الموضوعي لرسالة الأنبياء ، ومع الزمن تحدث عملية « شخصنة » المؤسسة ، بمعنى اندماج المؤسسة في أشخاص القائمين عليها ، ويرى هؤلاء أنهم هم « الدعوة » وأنه لا يجوز لغيرهم التحدث باسمها ، وبهذا تضيف المؤسسة لنفسها صفة « الاحتكار » ، فيختزل الدين في المؤسسة وتختزل المؤسسة في القائمين عليها .

ولما كانت هذه العملية غير سليمة من الناحية الأصولية ففي كثير من الحالات تنشأ « مؤسسة » معارضة تنازع المؤسسة الأولى احتكار الدعوة ، وتنشأ صراعات بينهما .

وظهر هذا جليًا في تاريخ الكنيسة ، فقد بدأت الانشقاقات منذ تاريخ مبكر ، وتزايدت مع الزمن ، وأصبحت الكنائس الكبرى هي الكاثوليكية ، والأرثوذكسية والبروتستانتية بالإضافة إلى عدد آخر اقل شأناً .

وكل كنيسة تدعى أنها تمثل المسيحية الحقة ، وأكثرها تمسكاً وتعصبًا هي الكنيسة الكاثوليكية التي ما فتأت تدَّعى من أيامها الأولى أنها الكنيسة الحقة ، وآخر ما جاء في هذا الصدد ما ذكره البابا بنديكت السادس عشر في خطبته المشهورة بإحدى الجامعات الألمانية أن الكنيسة المسيحية الهيلينية التي ظهرت في عاصمة أوروبا العريقة روما هي وحدها التي تقدم الخلاص ، أما بقية الكنائس فهي تابعة لها ، وفي اليهودية ظهر القرآون والربانيون .

ولا يزال الخلاف ما بين الكنائس يصل إلى حد تحريم التزاوج ما بينها ، كما تختلف عادات وطقوس بعضها عن بعض ، حتى تحديد عيد الميلاد يختلف ما بينها.

في كل هذه الحالات تكون المؤسسة ــ وليس الدين ــ هي التي قادت الصراع وتولته ، فقد قاد السينود اليهودي الحملة على المسيحية ، وهو الذي ألب السلطات الرومانية

علـى المسـيح وطلـب منهـا صـلب المسـيح ، وحـاول الـوالي الروماني الوثني التخلص من هذه المهمـة البغيضـة وأراد أن يمارس حقه في العفو ويعفو عنه ، ولكنهم رفضـوا وآثروا أن يعفى عن لص هو بارباس ولا يعفو عن المسيح .

ورغـم ذلـك ، انتصـرت المسـيحية ، وعندئـذ قامـت الكنائس باضطهاد اليهود اضطهادًا شنيعًا على مر العصور ، منذ انتصار المسيحية حتى مشارف العصر .

على أن انتصار المسيحية كـان يـؤذن بإضـرام الحـرب مـا بين كنائسها المختلفة وقد خربت أوروبـا حـرب المائـة عـام وثـار الكاثوليك علـى الهوجونـون فـي فرنسـا فـي مذبحـة سـان بارثلمو ، وفـي كل مكـان من أوروبـا قامت الحـروب مـا بين المذهبين الرئيسيين في أوروبا الكاثوليكيـة والبروتستانتية ولا تزال آثارها قائمة حتى الآن في أيرلندا .

فإذا كانت الخلافات ما بين المؤسسات الدينية المسيحية ــ أي الكنائس ــ قد أدت إلى حروب غطت أوروبا كلهـا ، فلنـا أن نتصور موقفها عند ظهور دين غريب عليها هو الإسلام .

ما أن ظهر الإسلام حتى شنت الكنيسة عليـه حملـة مـن الاتـهامات التي نالت شخصية الرسول ﷺ وقداسة القرآن ، ثـم تنامت إلى الحـروب الصليبية التي دعا إليها ــ باسم المسيح ــ البابا أوربان الثاني ، وظلت هذه الحـروب قـرنين ، وارتكبت فيها الجيوش التي تضع شارة الصليب على ملابسها وأعلامها مجازر ومنكرات يشيب لهولها الولدان واستمرت حتى احتلت

غرناطة وطردت المسلمين واستأصلت الباقين عن طريق محاكم التفتيش الرهيبة .

وفي الجحيم الأحمر الذي أثارته الكنيسة على الإسلام وجدت سابقة وحيدة يتيمة سلكتها الكنيسة وأجرت حوارًا وتفادت العداوة واعترفت بالإسلام واعترف الإسلام بها ، تلك هي ما حدث مع نصارى نجران .

وكان لنصارى نجران (باليمن) وضع مميز ولها كنيسة بأساقفتها وقسسها ولها علاقات وثيقة بالعالم المسيحي ، وعندما ظهر الإسلام أرادوا تنظيم «مباهلة» ، أي ما يشبه المناظرة ، وذهبوا للمدينة وقابلهم الرسول ﷺ وأنزلهم بالمسجد وأقاموا فيه صلواتهم ، ولكنهم كانوا قد فكروا في عواقب هذه «المباهلة» وما ستجره من عداوة ، فسألوا المسلمين : ألا تقولون إن المسيح كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الله تعالى أيده بروح القدس ؟ فرد المسلمون : بلى ، فقالوا حسبنا هذا ، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يرسل معهم أحد أعوانه فأرسل معهم أبو عبيدة .

إنه لمن المؤسف أن هذه الواقعة لم تتكرر ، وظل موقف الكنيسة عدائيًا وأرسلت المبشرين لتحويل المسلمين ، كما فتحو المدارس والمستشفيات ذات الطابع التبشيري ، وحتى في الدول الإسلامية التي يعيشون فيها في ظل الحرية الإسلامية ، فإنهم لم تبدر منهم بادرة اعتراف قلبي بالإسلام .

هذا السجل الطويل المتصل للتعصب ، والعداوة والحروب التي أثارتها المؤسسات الدينية ما بين بعضها بعضًا ، وما بينها وبين الإسلام ، كانت وراء تنديد القرآن برجالها ، وقد اعتبرهم القرآن وليس المسيحية أو اليهودية ، أو حتى المسيحيين واليهود هم المسئولين عن هذا الصراع واتهمهم بأمرين :

الأول : أنهم « إِنَّ كَثِيراً مِنْ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ » وهو أمر يؤكد ثروة الكنيسة وما لجأت إليه في بيع « صكوك الغفران » ، وما احتازته من أوقاف أو هبات .

والثاني : أنهم « يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ » ، وقد أوضحنا أن طبيعة العمل العام تجعل للمؤسسة مصلحة خاصة بها غير مصلحة الدين ، بل ومخالفة له في بعض الحالات ، فليس من الغريب أن يحدث هذا التحريف سواء في عرض صورة الله أو في استحواذهم على سلطات ، وهذا في الحقيقة لا يمس المسيحية ، بل هو يبرئها ، ويوقع المسئولية على المؤسسة الدينية ، ومما يؤكد ذلك أن الكتب المقدسة كانت تكتب باليد قبل أن تظهر المطبعة بمئات السنين ، وأن التوراة والإنجيل تعرضت لعملية ترجمة من العبرية التي كانت قد انطمست إلى اللغة اليونانية التي كانت لغة

الثقافة في الإسكندرية في الترجمة السبعينية التي نقح فيها الفيلسوف اليهودي « فيلون » ، ومن هذا التاريخ السحيق وقد تعددت الترجمات حتى التي وضعها « مارتن لوثر » ، ويعترض المسيحيون بشدة على هذه النقطة ، مع أنها ليست إلا ذكرًا لوقائع تاريخية ، وهذا لم يحدث بالنسبة للمسيحية واليهودية فحسب بل حدث في أديان أخرى وحدث هذا في الإسلام بالنسبة للسُنة التي لم تدون إلا بعد مائة سنة من الهجرة ، وإن كان القرآن قد نجا من هذه الظاهرة لأنه دون بعد خمسة عشر عامًا من الهجرة ، وكان قبلها محفوظاً في الصدور مكتوبًا في رقاع متفرقة.

- ٢ -

أحد عشر دليلاً على تقرير الإسلام التعددية الدينية

رأينا في القسم الأول من هذا البحث أن إثارة التعصب أو غرس فكرة أن الدين الذي يؤمن به فرد لابد وأنه أفضل الأديان ، وإن هذا يعني الإيمان به ورفض غيره ، لا يعود في الحقيقة إلى الفرد نفسه ، ولا إلى الدين نفسه ، وإنما يعود إلى المؤسسة الدينية التي قامت بدور المحامي عن الدين ، وطبيعي أن ترى أن دينها هو وحده الحق ، وأن غيره هو الباطل ، وأنها وحدها التي تمثله وغيرها لا حق له ، وضربنا بعض الأمثلة لما قامت به المؤسسة الدينية في اليهودية والمسيحية في هذا الصدد .

فما هو موقف الإسلام ؟

إن الإسلام يختلف عن اليهودية والمسيحية في أنه جاء ـ بعدهما ـ وتعين عليه أن يحدد موقف الإسلام منها تحديدًا في القرآن والسُنة ، أي في أصول الإسلام ولم يكن هذا متيسرًا لليهودية أو المسيحية ، لأن الإسلام لم يكن قد ظهر بعد ، أما موقف العداوة ، فهذا ما وقفته المؤسسة الدينية ، أما اليهودية والمسيحية نفسها ـ أي الكتب المقدسة ـ فليس فيها نص يعترض على الإسلام الذي لم يكن قد ظهر بعد .

والأمر الثاني الذي يختلف فيه الإسلام عن اليهودية والمسيحية هو أن الإسلام لا يعترف بمؤسسة دينية تقف بين

الإنسان وربه ويكون لها سلطة التحليل والتحريم ، وتقوم بدور المحامي عن الإسلام ، بل إن القرآن ــ كما ذكرنا ــ حمل حملة شعواء على رجال الدين ــ اليهود والمسيحيين ــ وندد بهم واتهمهم بتحريف الكلم عن مواضعه .

وبانتفاء المؤسسة الدينية انتفت الهيئة التي كانت تغرس التفاضل الديني ، وأن ديناً معيناً هو وحده المنزل من السماء ، وأن غيره أديان مزيفة ؟

على أن هذا لم يكن كافيًا ، فلم يكن الإسلام يستبعد المؤسسة الدينية إلا لأنه يرى التعددية الدينية ، ويقرر التعايش السلمي بينهما ويستبعد فكرة نسخ الإسلام للأديان الأخرى .

ولدينا أحد عشر دليلاً على ذلك ، وهي كالآتي :

(١) أن الله تعالى استبعد إيمان الناس جميعًا بالإسلام ، واستنكر إكراه الناس على أن يكونوا مؤمنين :

- « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ » (يونس : ٩٩ــ ١٠٠) .
- « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (يونس : ١١٨ــ١١٩) .

(٢) نصت سورة « الكافرون » على أن الكافرين لن يؤمنوا بالإسلام ، وأن المؤمنين لن يؤمنوا بالكفر ، أي أن الآية أبدت بقاء الكفر والإيمان وأكدت على ذلك بنهاية الآية الأخيرة فيها « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » .

وتعبير « الكافرون » الذي يثير غير المسلمين ، إنما أريد به الذين لا يعترفون بالإسلام ، ولم يكن القرآن ليعدد هؤلاء من مسيحيين أو يهود أو صابئة أو بوذيين .. الخ ، فالمسيحيون بالنسبة للمسلمين كفار ؛ لأنهم لا يؤمنون بالإسلام ، والمسلمون كفار بالنسبة للمسيحيين لأنهم لا يؤمنون بالمسيحية .

إن سورة الكافرون قننت وأبدت التعددية الدينية .

وقد يؤكد هذا دعوة القرآن المسيحيين واليهود ليحكموا بكتبهم :

- « وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ » (المائدة : ٤٧) .
- « وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمْ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » (المائدة : ٤٣) .

(٣) إن الإسلام يؤمن بالرسالات السابقة ، وبأنبيائهم ، ويصل هذا الإيمان درجة ، « لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ » أي من الأنبياء ، وهنا لفتة هامة أن الإسلام يؤمن بالأنبياء لأنه يرى أنهم بلغوا رسالة الدين الحقة ، ولكن

هذه الرسالة تعرضت للتحريف على أيدي المؤسسة الدينية وخلال الترجمات :

- « قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (آل عمران : ٨٤) .
- « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (البقرة : ١٣٦ـ١٣٧) .

(٤) <u>النص على تعدد الشرائع</u> :

- « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (المائدة : ٤٨) .
- « وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (البقرة : ١٤٨) .

(٥) النهي عن التفاضل ما بين الأديان :

- « وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » (البقرة : ١١٣) .
- « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » (المائدة : ١٠٥) .
- « وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (العنكبوت : ٤٦) .

(٦) حرية الفكر والاعتقاد :

- « لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (البقرة : ٢٥٦) .
- « وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً » (الكهف : ٢٩) .

ويتبع حرية الاعتقـاد أن القرآن ذكر الـردة مرارًا ولـم يرتب عليها عقوبة دنيوية ، كما أن الرسول ﷺ ارتد في حياته كثيرون فما عاقبهم ، إلا إذا اقترنت الـردة بقتل وانضمام إلـى الأعـداء ، ومـا يرتبـه الفقهـاء ، فهـو أمـر مـن «المؤسسـة الدينيـة» التـي حـاول الفقهـاء غرسـها فـي الإسـلام ، وسـيأتي الحديث عنها .

كما يجدر الإشارة إلى أن القـرآن حرم الرسل من أي سلطة باستثناء مهمـة التبليـغ ، وهـي علـى كل حـال ليست سلطة ، ولكن رسالة «وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُـونَ مِمَّـا أَعْمَـلُ وَأَنَـا بَـرِيءٌ مِمَّـا تَعْمَلُـونَ» (يـونس : ٤١)

في العدد الماضي ذكرنا ستة مبادئ قرآنية تقرر التعددية الدينية وتعايش الأديان بعضها بعضًا ، وأن الدين اللاحق لا ينسخ الدين السابق ، فالإسلام لم ينسخ المسيحية ، والمسيحية لم تنسخ اليهودية ، ولم يأت دين ينسخ الإسلام ، ولهذا فإن من الممكن للأديان الثلاثة (وغيرها أيضًا) أن تتعايش جنبًا إلى جنب ، وفي سلام وتكامل .

ونستأنف اليوم بقية المبادئ القرآنية التي تؤكد هذا المعنى :

(٧) اعتبار حرية الاعتقاد قضية شخصية لا دخل فيها للنظام العام لأنها لا تعني إلا صاحبها :

- « مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » (الإسراء : ١٥) .
- « إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ » (الزمر : ٤١) .

(٨) إن القرآن الكريم لم يحرم أصحاب الأديان الأخرى من رحمة الله وثوابه ، ووكل الفصل في الخلافات ما بينهما إلى الله تعالى :

- « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ» (البقرة : ٦٢) .

- « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد» (الحج : ١٧) .

(٩) اعترف القرآن بالإنجيل والتوراة ككتب منزلة ، وكان تحفظه الوحيد هو ما تثبته الوقائع التاريخية والقرائن عن وجود اختلافات نتيجة لعدم توثيقها عند نزولها إلا بعد ذلك بسنوات عدة سمحت بالخطأ أو النسيان ، وقد حدث هذا في الإسلام بالنسبة للسُنة التي تأخر تدوينها ، وكذلك للترجمات المتعددة أو للتوجهات الكنسية ، وهي نقطة محسومة تاريخيًا ، وهناك عشرات الكتب الخاصة بدراسة الأديان أثبتتها ، ولا يعقل أن يوجد في الوصايا العشرة التي اعتبرتها اليهودية والمسيحية ميثاق الفضيلة « إن الرب إلهك إله غيور يفتقد الذنوب في الجيل الرابع من الأبناء » ، باستثناء ذلك فقد اعترف القرآن بهذه الكتب وبسلامة أتباعها :

- « إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوْا

النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ » (المائدة : ٤٤) .

- « وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ » (المائدة : ٦٦) .
- « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » (المائدة : ٦٦) .

(١٠) إن القرآن يجعل العلاقة مع الآخر « غير المسلم » البر والإنصاف :

- « لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ » (الممتحنة : ٨-٩) .

بل أننا نجد في سورة التوبة ، وهي السورة الوحيدة التي لم تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم ، وقد كشفت سريرة المنافقين والكافرين .. الخ ، آية تقول « وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ » (التوبة : ٦) ، وقد استفاد من هذه الآية بعض المسلمين الذين وقعوا في يد فئة من الخوارج الذين يعتبرون أن ارتكاب الذنب كفر ، فسألوهم من أنتم ؟ فقال كبيرهم نحن مشركين ، استجرنا بكم فأسمعونا كلام الله ثم أبلغونا مأمناً ، فأجاروهم وأسمعوهم كلام الله ثم أبلغوهم مأمنهم !!

(١١) <u>قبول الجزية من غير المسلمين والنص على حماية الكنائس والرهبان</u> :

كانت وصية الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر للجيوش الإسلامية تشدد على حماية الكنائس ودور العبادة وتحمي القسيسين والرهبان من عدوان الجيش ، وتقبل الإسلام أخذ جزية من أهل الكتاب نظير حمايتهم الخارجية ، وأن يكون لهم حرية تطبيق ما تنص به شريعتهم ، ولو كان الإسلام يأخذ بمبدأ نسخ الإسلام لما عداه لكان يجب أن يكون أول ما يفعله الجيش الإسلامي هو هدم الكنائس وقتل رجال الدين ، ويكون قبول الجزية رشوة ومخالفة .

* * *

يمكن أن تساق على هذا الحديث بعض تحفظات أو شبهات :

الشبهة الأولى أننا ذهبنا إلى انتفاء المؤسسة الدينية في الإسلام ، ولكن الواقع يظهر لنا أن « الفقهاء » سيطروا على

الفكر الإسلامي وسيروه تبعًا لهم وأنهم في الواقع شكلوا ما يشبه المؤسسة الدينية ، ولكن ظهور الفقهاء كان بداعي التخصص وهو ظاهرة اجتماعية ، وليس لضرورة دينية ، ويظهر الفرق أن الفقهاء تعبير مفتوح غير مغلق ، فكل من يحصل جانبًا كبيرًا من العلم بالقرآن أو الحديث أو الفقه يمكن أن يكون فقيهًا ، فهو مجال مفتوح ، وليس فيه تراتيب إدارية أو طقوس تحكمه وتغلقه ، وقد كان معظم هؤلاء الفقهاء عباقرة في تخصصاتهم ، ولكن تقليدهم وإتباعهم أساء إلى الإسلام ، وكان من عوامل تخلفه ، وهذا لا يحسب على الإسلام ، لأن الإسلام ليس فيه أي نص على تكوين هيئة معينة لها حقوق ولها سلطة تحليل وتحريم ، ويمكن للأفراد التملص منها ، بل إن بعض هؤلاء الأئمة نهى أن يُقلده الناس ، فالمؤسسة الدينية بمعناها الكامل غير موجودة في الإسلام ، ولا يملك الإمام الأكبر أن يحكم على أصغر مسلم ، ويمكن لكل واحد أن ينقده إذا كان نقده سليمًا ، وهذا بالطبع يختلف عن سلطة الكنيسة التي استحوذت على كل شيء في الدين حتى لم تترك شيئاً للسيد المسيح ، ولها قداسة وتملك سلطة التحليل والتحريم والشلح .

نقول إن فلول هذه المجموعة موجودة تحاول أن تفرض آراءها وبحكم هذا الوجود التقليدي لهذه المجموعة استطاع أحد أفرادها أن يقول في جريدة «الدستور» (٢٠٠٧/٩/٣٠م ص ١٤) : « الإسلام بس هو اللي صح واللي يقول غير كده .. كافر » .

ولكن هؤلاء ليس لهم سلطة أصولية دينية ، وهم يحاولون فرض آرائهم بدعوى التخصص .

الشبهة الثانية أن في القرآن بعض آيات توحي بأن الدين الوحيد هو الإسلام ، وهذا يعود إلى أن الإسلام يعتبر أن خصيصة الأديان الرئيسية هي « إسلام الوجه والقلب لله » ، وهو يرى أن هذا قد تحقق في اليهودية والمسيحية وفي أنبيائها ، ومن ثم فإنه يرى أنهم جميعًا « مسلمون » ، وأن إبراهيم « حَنِيفاً مُسْلِماً » وأن إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ كلهم مسلمون ، وهذا فيما نرى هو ما أرادته الآية « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ » (آل عمران : ١٩) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فمن المهم لفهم المضامين والدلالات القرآنية تقصي السياق ، وما سبق الآية المقصودة ، وما تلاها لأن آيات القرآن في كثير من الحالات تكون كموجات البحر لا يمكن فصل موجة عن أخرى ، وقد جاءت آية « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ » (آل عمران : ٨٥) في سياق سجال طويل عن الدين ، لا نرى مناصًا من إيراده على طوله :

- « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ

مَــنْ فِــي السَّــمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعــاً وَكَرْهــاً وَإِلَيْــهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَـى إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَقَ وَيَعْقُـوبَ وَالأَسْـبَاطِ وَمَـا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَـغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينـاً فَلَـنْ يُقْبَلَ مِنْـهُ وَهُوَ فِـي الآخِـرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ * كَيْـفَ يَهْدِي اللَّـهُ قَوْمـاً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـانِهِمْ وَشَـهِدُوا أَنَّ الرَّسُـولَ حَـقٌّ وَجَـاءَهُمْ الْبَيِّنَــاتُ وَاللَّـهُ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ » (آل عمران : ٨١ـ٨٨) .

من هذا السياق يفهم أن الآية « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينـاً فَلَـنْ يُقْبَـلَ مِنْـهُ » ، إنمـا قصـد بهـا مجموعـة ارتـدت عـن الإسلام وكفروا بعد إيمـانهم ، وطبيعـي أن يكـون رد الإسـلام على من ارتد عنه أن لا « يُقْبَلَ مِنْـهُ » مـادام قد ارتـد وابتغـى آخـرًا ، ولا يتـأتى أن يكـون رفضًـا لغيـر الإسـلام مـن ناحيـة المبدأ ، لأن الآيـات التـي توجـب التسـليم بكـل مـا أنـزل علـى إبراهيم وإسماعيل قد سبقتها .. الخ .

كلكم سيدخل الجنة
«إن شاء الله»
إلا المارد المتمرد

الفكرة التي لدي كل أصحاب دين من أصحاب الأديان الأخرى أنهم وحدهم على الصواب ، ووحدهم سيدخلون الجنة ، وإن الآخرين سيدخلون النار .

يستوي في ذلك المسلمون والمسيحيون واليهود .

وهذه الفكرة على تأصلها في نفوس أصحابها ليس لها أصل في الدين .

فعندما ظهرت اليهودية لم تكن المسيحية قد ظهرت حتى يمكن أن تقول اليهودية عن المسيحية أنها في النار ، لسبب بسيط هو أن المسيحية لم تكن موجودة عندما نزل العهد القديم وكتب اليهودية المقدسة .

وبالمثل ، فإن المسيحية ظهرت قبل أن يظهر الإسلام بستة قرون ، فلا يعقل أن تتضمن الأناجيل استبعادًا للإسلام أو تكفيره .. بكل بساطة ، لأن الإسلام لم يكن موجودًا وقت نزل الأناجيل .

وفضلاً عن هذه الوقائع التاريخية ، فإن روح الدين ترفض استبعاد بعضها لأن روح الدين واحدة ، وهي الإيمان بالله واليوم الآخر ، وكل الديانات تؤمن بذلك .

فإذا قيل إن هناك اختلافات في تكييف الألوهية ، فيغلب أن تكون هذه قد جاءت نتيجة للاختلافات في الترجمة التي تعرضت لها الكتب المقدسة في اليهودية والمسيحية أو لاختلاف الكنائس .

أما الاختلافات في الشرائع ، فهذا أمر لا يمس روح الدين الواحدة ، ولكنه يتعلق «بالدنيويات» التي تلحق بالأديان وتتفاوت طبقاً لأزمنة وأمكنة الديانات .

وعند تقصي أسباب وجود فكرة «الاستبعاد» التي نلمسها في الأديان ــ رغم عدم قيامها على أساس أصولي ــ فإننا نجد أن السبب هو «المؤسسة الدينية» .

فالمؤسسة الدينية تقوم بدور المحامي عن شخص ما ، كل ما يهمه هو أن يظفر لموكله بالبراءة وأن يوقع على خصمه الإدانة بصرف النظر عن أي اعتبار آخر .

فالمؤسسة الدينية بحكم وجودها لابد وأن تأخذ طبيعة الاستحواذ والاستبعاد فهي تستحوذ على المؤمنين بها وتستبعد من عداهم ، ولابد أن تصف الأديان الأخرى بالدونية أو الهرطقة شأنها شأن المحامي بالنسبة لخصومه ، وهذه الخاصية هي التي تبرر عمليًا وجودها ، فلو آمنت أن روح الأديان واحدة ، لما كان هناك مبرر لوجودها ، وتميزها ، وما

تتمتع بـه مـن سلطـان وأمـوال ، وقداسـة ، والمؤسسـة فـي هذا كالشركة التي تمد نشاطها حتى يستسلم كل التجار ، أو الدولـة التي تعمل لزيادة رقعتها علـى حسـاب الـدول الأخـرى ، وهـي تبرز وتضخم الفروق بين الأديان حتى لا يبهت دورها .

وقـد كانـت المؤسسـة الدينيـة اليهوديـة ــ ولـيس الشـعب اليهـودي أو الكتـب اليهوديـة المقدسـة ــ هـي التـي اضـطهدت السيد المسيح بمجرد أن ظهر وأرادت صلبه ورفضت عرض الوالي الروماني العفو عنـه ، وفضلت أن يعفـو عـن لـص هـو «باراباس» .

وكانـــت المؤسســـة الدينيـــة المســـيحية ولـــيس عامـــة المسـيحيين ــ والكتـب المسـيحية المقـررة ــ هـي التـي قـادت الجيوش فـي الحـروب التـي حملوهـا اسـم «الصـليبية» ، وقـال البابـا أوربـان الثـاني وهـو يحفـز مسـتمعيه أنـه لـيس هـو الـذي يتكلم ، ولكن السيد المسيح .

وهل يعقل أن يقيم المسيح الذي قال «من ضربك علـى خدك الأيمن ، فأدر لـه خدك الأيسر» ، ودعـا أتباعـه «أحبـوا أعداءكم» ــ محكمـة تفتيش للمخـالفين ــ تمـارس أسـوأ صـور التعـذيب ، وتختـرع المعـدات الشـيطانية التـي تحـدث أقصـى عذاب ، ويتم هذا كله بحجة «خلاص الروح» .

إن أقصى ما يمكن أن تقوله الأديان لأتباعها أنهم علـى حق دون أن يعني ذلك أن غيرهم على باطل ، خاصة بالنسبة للأديان التي تأتي بعدها .. لأنها لا تملك أن تحكم على غائب ،

وهذا يعني أن اليهودية ليس من حقها أن تدين المسيحية ، ولا من حق المسيحية أن تدين الإسلام ، ولكن قد يجوز أن تتحدث المسيحية على اليهودية ، كما يجوز أن يتكلم الإسلام عن المسيحية واليهودية ، وعندما يراد الإنصاف والموضوعية والبعد عن التحيزات ، فلن يقضي هذا الكلام ببطلان ما سبقها من الأديان .

وهذه ما يؤدي بنا إلى الحديث عن الإسلام وموقفه في تلك القضية .

إن الإسلام جاء بعد اليهودية والمسيحية ، وأعلن أنه الدين الخاتم ، وصدقت ١٤٠٠ سنة على ذلك فلم يظهر دين حقيقي بعد الإسلام ، وإنما ظهرت نحل وملل وصور من التلفيق من الأديان .. الخ .

فلو تحدث عن المسيحية أو اليهودية لكان ذلك على أساس أنه جاء بعدهما ، كما كان يمكن للمسيحية أن تتحدث عن اليهودية لأنها جاءت بعدها ، ولكن هذه الصفة ـ أنه خاتم الأديان ـ لم تحوجه إلى هذا على وجه التعيين ، كما أن طبيعته الخاصة لم تجعله يسلك هذا السبيل .

من هذه الطبيعة الخاصة أن الإسلام لا يعترف ولا يقر وجود كنيسة أو مؤسسة دينية ، وهذا أمر مقرر في صلب الشريعة التي تفرد الله تعالى بالتحليل والتحريم ، وترى إن أي مشاركة في هذا نوع من الشرك ، وعندما قال القرآن «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» ، فإنه كان يعلم أنهم

لم يعبدوهم بالمعنى الحرفي ، ولكنهم تقبلوا أن يشرعوا لهم باسم الله ما لم يأذن به فأعطوا أنفسهم سلطة لا تُعطى إلا لله ، لهذا لم تقم في الإسلام مؤسسة ، ولم يظهر فيها «بابا» له سلطة على المؤمنين ، ولم يكن هناك كهنة ولا رجال دين يعترف الناس أمامهم ويحلونهم من آثامهم ويباركونهم ، وظلت العلاقة بين الناس والله دون واسطة ، وعندما حكمت ضرورات التخصص بأن تتخصص مجموعة على الدراسة الفقهية الإسلامية ، فإن هذا اقتصر على محاولات الفقه والشريعة دون أن يدخل العقيدة لأن الإسلام ليس فيه لاهوت ، كما كان نوعًا من الاجتهاد المفتوح لكل من يستطيعه ، على أن ما ينتهي إليه هؤلاء لا يكون ملزمًا إلا لمن يقبله ، وقد أراد فريق من هؤلاء أن يتفردوا بالدراسة وأن يحتكروا تمثيل الإسلام وأن يجعلوا من ذلك «مهنة» مقصورة عليهم ، وفي مناخ الصدأ العقلي الذي أصاب المسلمين نتيجة لإغلاق باب الاجتهاد منذ ألف عام ، ادعى «الأزهر» في مصر هذه الصفة ، وناصرته الدولة جريًا على الحلف القديم ما بين السلطة والكهنة ، وظهر أحد هؤلاء يدعي ما يدعيه كهنة الأديان الأخرى من أن دينه هو الوحيد الصحيح ، أما الباقي فلا يعترف به ، وهو إدعاء لم يدعيه أحد حتى شيخ الأزهر ، على أن شيخ الأزهر ليس إلا عالمًا وفقيهًا ، وما أكثر الفقهاء والعلماء ، وقد رُد عليه ليس من زملائه في مجلس البحوث ، بل من عامة الناس وتعرض لهجوم شديد من الصحفيين ، لا

يمكن لمسيحي أن يوجه إلى الباب معشاره ، فالبابا لو غضب عليه «لحرمه» ولفقد صفته المسيحية واصبح «محرومًا» في حكم الميت روحيًا .

وبانتفاء الكنيسة ، انتفى العامل الذي يصطنع العداء بالأديان الأخرى على ما قدمنا .

ولم يكن رفض الإسلام أن يكون له كنيسة إلا جزءً من تكوينه ، فقد جاء لينهي العداوة بين الأديان ويقرر التعايش معها ، وهذا أمر تقرره الآيات القرآنية ، كما يقرره حديث الرسول ﷺ .

فهناك آيات عديدة تقرر أن ما اختلف فيه الناس من العقائد ، فإن الله تعالى هو الذي سيفصل فيه يوم القيامة ، وقد أحصينا في كتابنا «التعددية في الإسلام» أربعة عشر آية تقرر هذا المعنى .

ونهى عن التفاضل بين الأديان فقال :

- «وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (البقرة : ١١٣) .

ووجه المسلمين :

- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (المائدة : ١٠٥) .

وقال بصريح العبارة :

- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ» (البقرة : ٦٢) .

فلم يحرم هؤلاء جميعًا من أجرهم وأنه «لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ» .

أما في السُنة فانظر هذا الحديث المروي عن عبد الله بن عمر قال كنا نسير مع النبى ﷺ فى بعض غزواته فمر بقوم ، فقال : «من القوم» ؟ ، قالوا نحن المسلمون ، وامرأة تحصب (أى توقد) بقدرها ومعها ابن لها فإذا ارتفع وهج تنحت به فأتت النبى ﷺ فقالت «أنت رسول الله ؟» ، قال نعم قالت «بأبي أنت وأمي أليس الله أرحم الراحمين» ، قال ﷺ «بلى» ، قالت «إن الأم لا تلقى ولدها فى النار» ، فأكب رسول الله ﷺ يبكى ثم رفع رأسه إليها فقال «إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذي يتمرد على الله وأبى أن يقول لا إله إلا الله» [رواه ابن ماجة] .

واستئناسًا بهذا ، رأى بعض الفقهاء أن من يجتهد في تعرف الحق وأداه هذا إلى الكفر الصريح ، فإنه لا يحاسب لأنه تكليفه عندهم بنقيض اجتهاده تكليف بما لا يطاق ، والتكليف بما لا يطاق ممتنع شرعًا وعقلاً ، ومن الفقهاء المعاصرين ذهب الشيخ شلتوت إن من لم يؤمن بالله ولا

برسله ولا بنحو ذلك لا تجرى عليه أحكام المسلمين فيما بينهم وبين الله ، وفيما بينهم بعضهم بعضًا ، وليس معنى هذا أن من لم يؤمن بشيء من ذلك يكون كافرًا عند الله يخلد فى النار ، وإنما معناه أنه لا تجرى عليه فى الدنيا أحكام الإسلام ، فلا يطالب بما فرضه الله على المسلمين من العبادات ولا يمنع مما حرمه الإسلام كشرب الخمر وأكل الخنزير والاتجار بهما ، ولا يغسله المسلمون إذا مات ولا يرثه قريبه المسلم فى ماله ، كما لا يرث هو قريبه المسلم إذا مات .

أما الحكم بكفره عند الله فهو يتوقف على أن يكون إنكاره لتلك العقائد أو لشيء منها بعد أن بلغته الدعوة على وجهها الصحيح ، واقتنع بها فيما بينه وبين نفسه ، ولكنه أبى أن يشهد بها عنادًا واستكبارًا ، أو طمعًا فى مال زائل أو جاه زائف أو خوفاً من لوم فاسد ، فإذا لم تبلغه تلك العقائد ، أو بلغته بصورة منفرة ، أو صورة صحيحة ولم يكن من أهل النظر ، أو كان من أهل النظر ولكن لم يوفق إليها ، وظل ينظر ويفكر طلبًا للحق حتى أدركه الموت أثناء نظره ، فإنه لا يكون كافرًا يستحق الخلود في النار عند الله .

ثم قال : ومن هنا كانت الشعوب النائية التى لم تصل إليها عقيدة الإسلام ، أو وصلت إليها بصورة سيئة منفرة ، أو لم يفقهوا حجته مع اجتهادهم فى بحثها ــ بمنجاة من العقاب الأخروى للكافرين ــ ولا يطلق عليهم اسم الكفر ، والشرك الذى جاء في القرآن أن الله لا يغفره هو الشرك الناشئ عن

العناد والاستكبار ، الذى قال الله في أصحابه «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً» (النمل : ١٤) انتهى .

وهكذا فإن كل الشعوب التي لم تصلها دعوة الإسلام أو وصلتها بصورة مشوهة أو وصلتها بصورة حسنة ، ولكنهم لم يستطيعوا الإسلام لأسباب مختلفة ، هؤلاء جميعًا لا يدخلون النار لأنهم ليسوا مستكبرين متمردين ، ومن ثم فإن رحمة الله التي تكون رحمة الأم بولدها جزء من مائة جزء هي رحمة الله تجعلهم يدخلون الجنة .

الحكمة
باب يفتحه الإسلام على الزمان والمكان

يعجب الإنسان كيف فات على الأئمة الأعلام أن يتنبهوا إلى أن الإسلام فتح بابًا على الزمان والمكان اسمه "الحكمة" يمكن الإسلام ــ باعتباره آخر الأديان ــ أن يتابع التقدم البشري يأخذ منه ويقدم إليه عن طريق "الحكمة" التي هي إرث مشترك للبشرية كلها ونص عليها القرآن وقرنها "بالكتاب" .

إن القرآن عندما قال "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِيناً" لم يشأ أن يحرم الإسلام من كل ثمرات ما يأتي به المستقبل حتى لا يعد الكمال الذي حققه عند نزوله وضعًا مغلقاً يتخلف عما يصل إليه العالم من تقدم ، فاعتبر الحكمة أصلاً من أصول الإسلام كالكتاب ليتواصل الكمال الذي أراده الله للإسلام .

أغلب الظن أن الفقهاء عزفوا عن الاعتراف بأصل ومصدر مفتوح غير محدد أو منضبط ، يسمح بالانفتاح والتعددية ، وهى صفات يضيق بها الفقهاء عادة ، لأنها تفتح عليهم بابًا لا يمكنهم التحكم فيه .

وقد ذكر القرآن الكريم الحكمة فى آيات عديدة منسوبة إلى الرسول ﷺ ومقترنة بالكتاب مثل :

- ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾ {١٢٩ البقرة} .
- ﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ﴾ {١٥١ البقرة} .
- ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ {٢٣ البقرة} .
- ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾{٣٤ الأحزاب} .
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ {٢ الجمعة} .

وكان إيراد القرآن للحكمة بهذه الصفة مما دفع بالشافعى لأن يذهب إلى أن الحكمة هى السُنة ، لأنه ليس للآيات من تأويل إلا هذا ، وهو أمر كان يمكن قبوله لولا أن القرآن الكريم استخدم كلمة الحكمة فى آيات أخرى كثيرة بمعنى ينفى أن يكون المقصود بها السُنة ، فقد آتى الله داود الحكمة :

- ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ {٢٥١ البقرة} .
- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ {٢٠ ص} .

كما أتاها "الحكمة" لقمان :

- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ {١٢ لقمان} .

كما أتاها عيسى :

- ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ {٤٨ آل عمران} .
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون﴾ {٦٣ الزخرف} .

بل أتاها النبيين :

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾{٨١ آل عمران} .

كما تكلم عن الحكمة بصفة مجرد :

- ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ {٢٦٩ البقرة}
- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ {١٢٥ النحل} .
- ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾{٥ القمر} .

* * *

إزاء هذه الآيات التى تجعل الحكمة جزءًا من رسالة الرسل وشريكة للكتاب ، يكون علينا أن نرد على سؤال ذى شقين: الشق الأول هو ماذا يعنيه القرآن بتعبير "الحكمة" ؟ ، والثانى هو لماذا ذكر الحكمة جنبًا إلى جنب الكتاب ولم يقتصر على الكتاب وحده .

لعل أقرب تعيين لمعنى الحكمة فى القرآن هو العقل الخيّر والقيم العليا، والعلم الهادى الذى يستبعد الخرافة ويحول دون أن يضل المؤمنون .

وقد يلقى بضوء على هذا أن الله تعالى وصف نفسه فى آيات كثيرة بأنه "حكيم" أو عزيز ، وفى مواضع قليلة "خبيرًا" .

كما قد يعنينا أن نعلم أن "الحكم" وليس هو ببعيد فى الاشتقاق اللغوى من كلمة "حكمة" يراد به "القضاء" أو سياسة أمور الناس ، وهى كلها تحتاج أول ما تحتاج إلى الفطنة والكياسة ومعرفة طبائع الأشياء وأصول الشريعة ، والسنن التى يسير عليها المجتمع .. وهى فى إجمالها لا تخرج عما أشرنا إليه من المعرفة ، والعلم والخبرة .

يعزز هذا أيضا النصوص المتواترة والمتعددة فى القرآن عن الحث على التفكير وإعمال العقول والتدبر فيما خلق الله وأوجده من آيات وسنن والتعرف على آثار الحضارات القديمة وما تركوه من جنات وعيون .. الخ ، وأدل

علـى هذا مـا جـاءت بـه الآيـة ٣٧ مـن سـورة الرعـد ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ ، فنجد هنـا الجمـع مـا بـين القرآن والحكم والعلم فى سياق واحد .

ومن ناحية أخرى، فمن المعروف أن الحكمـة تـرادف كلمة "الفلسفة" وأن "الفيلسوف" إنمـا هو "محب الحكمـة" ، وقد فهم ابن رشد الحكمة التى ذكرها القرآن بمعنى الفلسفة .

وجاء فى مقال لأحد الباحثين عن معنى الحكمة [1] :

إن معـانى الحكمـة التـى حددها اللغويـون والمفسـرون الإصـابة فـى القول والفعل ، ومعرفـة أفضـل الأشـياء بأفضـل العلـوم ، أو هـى العقـل ، والعلـم والفهـم ، والمصـلحة ، والموعظـة ، والفلسـفة ، أو المعرفـة بالـدين والفهـم فيـه ، والنبـوة ، والفقه ، أو هى بحسب الطبرسى فى كتابـه "مجمـع البيـان فـى تفسـير القـرآن" ، العلـم الـذى تعظـم منفعتـه وتجـل فائدته ، وإنما قيل للعلم حكمة لأنه يمتنع به عن القبيح لما فيـه من الدعاء إلى الحسن والزجر عن القبيح .

ومهما قيل أو يقال فإن الحكمة لا تخرج أبدًا عن معنـى السداد والصـواب ، ووضـع الشـىء فـى موضـعه قولاً وعمـلاً

---

1) أنظر مقالاً للدكتور إبراهيم العانى مدير الدراسات والبحوث – الجامعة الإسلامية (لندن) فى جريدة الحياة بعنـوان ما بين الحكمة والشريعة : الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له (الحياة ، ٢٠٠١/١/٦) .

فالحكيم هو الذى يحكم الشىء ، ويأتى به على مقتضى العقل الواقع لا بحسب الميول والرغبات ولا يستعجله قبل أوانه أو يمسك عنه فى زمانه أو ينحرف به عن حدوده وقيوده كما يذكر محمد جواد مغنية فى كتابه "التفسير الكاشف" .

والتعريفات التى قدمها فلاسفة الإسلام للحكمة لا تختلف فى جوهرها عما سبق ذكره ، فهى عند الكندى "علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان ، لأن غرض الفيلسوف فى عمله إصابة الحق ، وفى عمله العمل بالحق" (راجع رسائل الكندى الفلسفية) ، والأمر نفسه نجده عند الفارابى وابن سينا .

أما ابن رشد فلعله خير من فصَّل العلاقة بين الحكمة والشريعة ، وأثبت بما لا يقبل الشك أن الحكمة واجبة شرعاً وعقلاً ، فهو يرى ابتداء فى كتابه "فصل المقال" أن الحكمة أو الفلسفة لو تعمقنا معناها فهى ليست شيئاً أكثر من "النظر فى الموجودات من حيث دلالتها على الصانع ، أعنى من جهة ما هى مصنوعات ، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعها ، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم" وهذا توجيه واضح إلى أن غاية الفلسفة فى النهاية الوصول إلى حقيقة وجود خالق لهذا الكون ، ولا أدرى هل توجد للدين عمومًا ، وللإسلام خصوصًا ، غاية أجلَّ وأسمى من ذلك " أ هـ .

نقول إننا وإن كنا نتفهم تفسير ابن رشد للحكمة فإننا نؤثر التعريف العام ، أى العقل والعلم والفهم وإدراك روح الإسلام ومقاصده وقيمه ؛ لأن الفلسفة قد تثير معنى اصطلاحيًا يحصر الحكمة فى متاهات علم الكلام ويركز الاهتمام على ذات الله تعالى ــ كما عند المعتزلة ــ وكان أحرى بهم أن يستخدموا الحكمة فيما يحقق الخير للمجتمع والناس وما يصلح الأوضاع الاقتصادية والسياسية وينقلها إلى عالم الحياة الدنيا الذى تكون مفيدة وفعالة فيه ، وليس إلى عالم الغيب وذات الله تعالى فضلاً عن أننا نهينا عن تقصيه وعمليًا فإن اعتبار الحكمة هى الفلسفة وعكوف الفقهاء عليها أدى إلى إفساد الفلسفة ، وإفساد الدين معًا .

أن هذا التفسير لمعنى كلمة "الحكمة" التى ترددت فى القرآن الكريم كأصل من أصول رسالة الأنبياء يعيننا فى الرد على الشق الثانى من السؤال ، وهو لماذا ذكر القرآن الحكمة جنباً إلى جنب القرآن ، ولم يقتصر على الكتاب وحده ؟ الرد أن الكتب السماوية سواء كانت قرآناً أو إنجيلاً أو توراة هى بالدرجة الأولى كتب هداية ، وقد تضمنت أصول وقواعد ومبادئ هذه الهداية ، ولكنها لم تتضمن تفاصيل وجزئيات ذلك. كما لم تتناول جوانب أخرى عديدة تزهر بها الحياة الإنسانية، ولا يمكن أن يتضمنها كتاب واحد ، وفى الوقت نفسه فلا يمكن تجاهلها أو إغفالها ، فهناك الآداب من شعر أو نثر أو رواية ، وهناك الفنون من تمثيل وموسيقى ورقص ،

وهذه الآداب والفنون تبلور العواطف والأحاسيس وما يجيش به القلب، وهناك الفلسفة وطرائقها فى البحث وهناك قبل هذا كله، العقل الإنسانى الذى يستبد به الفضول والاستشراف للمعرفة ونشوة الكشف عن الأفاق المجهولة، والتجربة .. بحيث يغير، ويبدل فى حياة الناس وأوضاع المجتمع، ويكون ما أراده الله له ، وحيًا ذاتيًا فى نفس كل فرد يحمل النفثة الإلهية فى الإنسان ، ويبدع نماذج وتجليات للحكمة التى تعزز الدين وتستكمل نقصه ، وتحقق للحياة الإنسانية الثراء ، والوفرة ، والتعددية ، وتربط ما بين القديم والجديد ، الشرق والغرب اللغة العربية وغيرها من اللغات .

ولعل الله تعالى وهو العليم بذات النفوس لم يشأ للمسلمين أن يوغلوا فيما وجههم إليه القرآن من تقوى وورع بحيث يحيف هذا على حق الحياة الدنيا وما تتطلبه من مقتضيات فتذهب حياتهم الدنيا بدعوى الحرص على الحياة الآخرة ، والله تعالى يريد التوازن وأن لا يفقد المسلمون حياتهم ووجودهم الدنيوى فنص على الحكمة بجانب الكتاب وأورد ذلك فى الكتاب نفسه حتى لا يظن ظان أن الأخذ بها (أى الحكمة) يخالف الكتاب ، لأن الله تعالى أراد بجانب التدين الأخروى نوعاً من التدين الدنيوى، بل أنه أعترف بما تنزع إليه النفوس بحكم طبيعتها ، ولم يأت الإسلام لقمع الميول والعواطف ، ولكن للحيلولة دون أن تستبد الشهوات بالناس فلا يعنوا إلا بها .

ونحن لا نستبعد أن ينتهى هذا المنهج إلى ما قد يجافى الحكمة نفسها ، والميل إلى بعض ما "تهوى إليه الأنفس" ، ولكن لا يدق على من يتعمق فى الأمور أن يرى أن هذا إنما أريد به توقى شر أعظم ، ونحن نرى فى حياتنا اليومية أن الإغراق فى العبادة وشدة الحرص على تجنب صغائر الذنوب قد أضاع على المسلمين حياتهم الدنيوية ، وجعلهم يشقون على أنفسهم ويلزمونها بما لا يلزم ، ويهدرون فى سبيل ذلك ما هو أجدى ، وأنه أفقد فيهم حاسة الأولويات وواقع التعدديات ، هذا كله فضلاً عن أن معالجة الأوضاع لا يمكن أن تتم بتجاهل ما تتضمنه من جوانب قد لا تروق لنا .. إذ لابد من الاعتراف بها والتعامل معها تعاملاً موضوعياً علمياً، أى بالحكمة ، وليس بالتجاهل أو بالقمع .

ولو اقتصر الله تعالى على ذكر الكتاب دون ذكر الحكمة لكان من المحتمل أن يتعسف فهمه وتفسيره فئات من الناس أو أن يتخذوا منه أداة تحقق مآرب خاصة ، واتجاهات معينة ولضاقت مجالات الحياة بالإنسان ووقعوا فى قبضة "كهنوت" يعسر لا ييسر ويغلق لا يفتح ويضيق لا يوسع ، وهذا هو ما حدث للأسف الشديد ، عندما تجاهل العلماء "الحكمة" ، فحرموا الفكر الإسلامى الإفادة من ثمار الحضارات البشرية ، قديمة وجديدة شرقية ، وغربية ، فحجروا واسعا ، وحبسوا أنفسهم ــ والإسلام ــ فى دائرة مغلقة .

إن "ثورة المعرفة" فى العصر الحديث وتدفقها من أربعة أركان العالم ووصولها عبر المطابع والقنوات الفضائية والإنترنت وخدمات التصنيف وضع تحت أيدى البحاث كل كنوز العالم القديم ، وكل مستجدات العصر الحديث بحيث أصبح "الكتاب" ، أى القرآن يمثل دليل العمل والإطار العريض للخطوط الرئيسية ، أما ما يملأ الحياة فهى هذه العلوم والفنون والمعارف التى تتدفق فيما يشبه الفيضان من كل الدول المتقدمة ، وأصبحت رمز ثروة وقوة العصر الحديث ، ومن هنا تتضح حكمة الله تعالى فى النص عليها مرجعاً وأصلاً من أصول الإسلام ، لأنها هى أداة التعددية والانفتاح والإفادة من كل معارف العالم وهى بعد ، ما يحقق العزة والمنعة والقوة للمسلمين ، والتعايش مع المستقبل حتى لا يتخلف عنه .

وقد طبق الرسول ﷺ توجيه القرآن عندما قال "الحكمة ضالة المؤمن أنا وجدها فهو أحق بها"، وقال "اطلبوا العلم ولو فى الصين" ، ووجه أصحابه لتعلم اللغات وأخذ باقتراح سلمان شق الخندق .. الخ .

واليوم تنفض دعوة الإحياء الإسلامى الغبار من على الحكمة، وتعيدها إلى ما أرادها الله تعالى شريكة للكتاب فى الرسالة وشباكًا مفتوحًا على الزمان والمكان .. العالم أجمع ، والآن والمستقبل لينهل منه الإسلام ما يشاء من معارف ، وعلوم ، وفلسفة ، وآداب وفنون دون حرج ، لأنها أصل نص

عليه الكتاب كمصدر للإسلام ، كما أنها ليست إلا تجليات للفكر الإنسانى وما أودعه الله فيه من قوى تتوصل بها إلى الحقائق ، وتصول ، وتجول فى مجالات الإبداع الإلهى المعجز وتفيد منه وتثرى الحياة به ، وتسعد القلوب والعقول ، وتسد الحاجات ـ فلا تكون فاقة مادية ونفسية ــ ولا احتكار للمعارف ولا سدود قائمة تحول دون الإفادة من ذخائر الحضارة الإنسانية .

مانيفستو المسلم المعاصر

ـ ١ ـ

نؤمن بالله ، إنه محور الوجود ورمز الكمال والعقل والغائية ، وما ينبثق عنها من قيم ، وبدونه يصبح الوجود عبثاً ، والكون تحت رحمة الصدفة الشرود ، والإنسان حيواناً متطورًا أو "سوبر حيوان" .

والإيمان بالله الذي يكون قوة ملهمة هو ما يغرسه في النفس تصوير القرآن الكريم لله تعالى ، أما ما يرد في كتب التوحيد فلا يغني شيئًا ، بل قد يضر .

ـ ٢ ـ

الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية ، ويجب جعلهم المُثل في القيادة ، واطراح أحكام الطاغوت من قادة جيوش أو أباطرة أو ملوك .. الخ ، وما وضعوه من سياسات القهر التي لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساءت إلى البشرية .

ونحن نؤمن أن الإسلام قد قدم الصورة المثلى لله والرسول ﷺ على أننا نتفهم الصور التي قدمتها الأديان الأخرى ، لأن الدين أصلاً واحد ، ولكن الشرائع متعددة ، ونحن نؤمن بالرسل جميعًا ، وأن الله تعالى أراد التعدد

والتنوع "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً" ، وأن الفصل في هذا التعدد هو إلى الله تعالى يوم القيامة .

ونؤمن أن الدين هو المقوم الأعظم للمجتمع العربي ، وأنه يمثل التاريخ والحضارة والضمير ، وأن تجاهله يقطع التواصل مع الشعب ، ولا ينفي هذه الحقيقة أن تكون الفلسفة والآداب والفنون قد حلت محل الدين في المجتمع الأوروبي فلكل مجتمع طبيعته الخاصة وقدَره الذي لا يمكن التمرد عليه أو التنكر له ـ وفي الوقت نفسه ـ فإنه لا يحول دون تلاقح الأفكار وتحاور الحضارات ، وتقارب الديانات لأن الحكمة ضالة المؤمن .

ـ ٣ ـ

نؤمن بكرامة الإنسان ، وأن الله تعالى هو الذي أضفاها على بني آدم جميعًا ، فلا تملك قوة أن تحرمهم منها ، وهي تعم الجنس البشري من رجال ونساء ، بيض وسود ، أغنياء ، وفقراء .. الخ ، وقد رمز القرآن لهذه الكرامة بسجود الملائكة لآدم ، وتسخير قوى الطبيعة له .

إن كرامة الإنسان يجب أن تكون في أصل كل النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويجب أن تحرم تحريما باتا كل ما يهدر كرامة الإنسان جسدًا ونفسًا .

إن الإنسان هو الغاية ، والأديان هي الوسلة .

ولما كان الإسلام قد جاوز ــ كمًا نوعًا ــ الاتفاقيات الدولية عن حقوق الإنسان ، فإن أقل ما يجب أن يتم هو التطبيق الفوري لهذه الاتفاقيات .

ـ ٤ ـ

لما كان القرآن قد جعل مبرر سجود الملائكة لآدم هو تملكه لمفاتيح المعرفة التي تميز الإنسان عن بقية الكائنات ، والتي تنقذه من الخرافة ، فيفترض أن تكون المعرفة هدفا رئيسيًا للمسلمين وما يتبع هذا من استخدام العقل ، وما يثمره من علم وحكمة ويجب على كل نظام إسلامي أن يشيع الثقافة والمعرفة ، ويفتح النوافذ عليها ، ويهيئ كل السبل التي تيسر للجماهير معارف ومهارات العصر .

إننا لا نستطيع أن ندخل القرن الواحد والعشرين بأمية أبجدية .

ـ ٥ ـ

نؤمن بحرية الفكر ، وأنها أساس كل تقدم ، وأنه لا يجوز أن يقف في سبيلها شيء ، ويكون الرد على ما يخالف ثوابت العقيدة بالكلمة لا بالمصادرة أو الإرهاب أو التكفير وليس هناك تعارض بين حرية الفكر المطلقة والدين لأن الدين يقوم على إيمان ، ولا إيمان بدون اقتناع وإرادة ولا إرادة أو اقتناع إلا في بيئة تسمح بالدراسة الحرة ، والإرادة الطوعية والنظر الدقيق ، وفي القرآن الكريم قرابة

مائة آية تقرر حرية العقيدة بصفة مطلقة وأن مردها إلى الفرد نفسه ولا دخل للنظام العام فيها مثل "لا إِكْرَاهَ فِي الدِّين" ، "فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ" ، "وَقُلْ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" ، و"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ" ، و"أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" .

ولا توجد الحرية إلا بتقرير حرية إصدار الصحف والمطبوعات وتكوين الأحزاب والهيئات والنقابات وبقية مؤسسات المجتمع ، وحرية هذه الهيئات في العمل لتطبيق أهدافها ما دام ذلك يتم بطرق سليمة.

ونحن نرفض تماما دعاوى التكفير والردة ، ونكلها إلى الله تعالى يفصل فيها يوم القيامة ، كما قرر القرآن ذلك وطبقته ممارسات الرسول ﷺ .

أما ما قد ينشأ من أخطار ، فإن الحرية نفسها تفسح المجال لإصلاحه .

ـ ٦ ـ

يجب أن يكون العدل أساس التعامل بين الحكام والمحكومين ، الرؤساء والمرؤوسين ، الرأسماليين والعمال ، الرجال والنساء ..الخ ، لأن كل ما يمت إلى عالم العمل والعلاقات لا يمكن أن يستقر إلى على أساس العدل

ولا يجوز إعطاء فئات سلطات تمكنها من أن تحيف على حقوق فئات أخرى ، إن هذا نوع من الظلم الذي يماثل الكفر ، ويجب أن لا يسمح به .

إن كل ما جاءت به الشريعة من أحكام كانت تحقق المصلحة والعدالة ، فإذا جاوز التطور النص أو جعله لا يحقق المصلحة والعدل ، فيجب تغييره بما يحقق المقصد الذي أنزل من أجله ، واجتهادات عمر بن الخطاب معروفة ، وقامت على هذا الأساس .

ـ ٧ ـ

إن التحدي العملي الذي يجابه الدول الإسلامية اليوم هو التخلف اقتصاديا وعسكريًا وسياسيًا واجتماعيًا ، ولا يمكن وقف هذا التخلف إلا بجعل "التنمية" معركة حضارية تتم تحت لواء الإسلام باعتبارها النمط المطلوب من "الجهاد" ، واستنفار كل أفراد الشعب للمشاركة فيها من وضع الخطة حتى متابعتها وتقييمها ويجب أن تكون هذه التنمية إنسانية ، تبدأ من محطة العدالة الممكن تحقيقها لتصل إلى محطة الكفاية المطلوب تحقيقها ، إن الإيمان وحده هو الذي يولد الطاقة المجانية اللازمة ويوظفها لدفع التنمية وتجاوز المعوقات دون حاجة للاستثمارات التي تفسح المجال للتبعية والسير في مسار وإسار الدول الكبرى .

وأي محاولة لتنمية تستسلم لادعاءات البنك الدولي أو تقلد النماذج الأوربية والأمريكية لن تسفر إلا عن مزيد من التخلف والفاقة والتخبط .

وبالمثل فإن أي محاولة لتنمية يضعها خبراء أو حكومات دون أن يكون لها الأساس الإيماني والمشاركة الجماهيرية أو تستهدف مصلحة الأقلية على حساب الجماهير العريضة هي تنمية محكوم عليها بالفشل .

ـ ٨ ـ

إن الصورة النمطية لشخصية المسلم التي تتسم عادة بالسلبية والماضوية والتركيز على الطقوس والشعائر ليست هي صورة المسلم أيام الرسول ﷺ ، ويعود هذا الاختلاف إلى أن قصر مدة الرسالة النبوية والخلافة الراشدة (٣٠ سنة) ، تكن كافية لتعميق جذور الشخصية الإسلامية ، ثم جاء الملك العضوض ، وتدهور الخلافة وسد باب الاجتهاد لأكثر من ألف عام ، وغلبة الجهالة والاستبداد .. الخ ، وتمخض هذا كله عن الصورة المعروفة اليوم والتي تتقبلها وتبقى عليها المؤسسات الدينية والنظم الحاكمة لأسباب تتعلق بالقصور ، أو الإبقاء على المصالح المكتسبة .

ونحن نرفض هذه الصورة ، ونعمل لإحياء إسلامي .

لا يمكن تحقيق أي إحياء إسلامي إلا بالعودة رأسا إلى القرآن الكريم ـ وضبط السنة بضوابطه وعدم التقيد بما وضعه الأسلاف من فنون واجتهادات تأثروا فيها بروح عصرهم وسيادة الجهالة واستبداد الحكام وصعوبات البحث والدرس ، وانعكس هذا على تفاسير القرآن وأحكام الفقه وفنون الحديث وأقحم فيها مفاهيم دخيلة ومناقضة لروح الإسلام .

لقد كان الإسلام أصلا دعوة لإنقاذ الناس من الظلمات إلى النور ، وإحلال "الكتاب والميزان" أي المعرفة والعدل محل الجهالة والظلم وإشاعة قيم الخير ، والعدل ، والحرية ، والعلم .. الخ ، هي روح الإسلام بينما تكون الطقوس والشعائر هي جسم الإسلام ، والاقتصار عليها ـ دون القيم ـ هو احتفال بجسم لا روح فيه .

هناك حقيقة تصل إلى مستوى البدائه ، وإن أخفتها الغشاوات الكثيفة ، تلك هي أن على كل جيل أن يعيش عصره دون الإخلال بالقيم العظمى للإسلام ، لأن هذا علامة صحة وتطبيق لعالمية الإسلام وموضوعيته وصلاحيته لكل زمان ومكان ، كما أنه يخالف ما أراده الله تعالى عندما قال "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" .

ـ ١٠ ـ

إن الإسلام لا يحتكر ـ وحده ـ الحكمة ، ولكنه ينشدها أنا وجدها ، وهو يتقبل كل الخبرات ـ كما أنه يقدم خبراته "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ" ، من هنا فإن النزعة الماضوية الانعزالية واتخاذ نمط المجتمع الذي كان موجودًا من قبل باعتباره النمط الأمثل ، والضيق بكل مستجدات العصر من فنون وآداب ، والنظرة المتخلفة للمرأة وحبسها وراء الأسوار ، كل هذا يخالف جوهر الإسلام ، وعالميته وصلاحيته لكل زمان .

وليس هناك خوف من أن يذوب الإنسان المسلم في الحضارة العصرية ، لأن خيطاً وثيقا يربطه بالله والرسول يبقى له قدرًا من القيم يكبح جماحه ويحول دون انفلاته وذوبانه .

للاستعلام :

١٩٥ شارع الجيش - بالقاهرة ١١٢٧١

بريد الظاهر هاتف وفاكس : ٢٥٩٣٦٤٩٤

e.mail:gamal_albanna@infinity.com.eg

http://www.islamiccall

دعوة لإقامة أممية إيمانية
في مواجهة العولمة المتوحشة

وقع على الإسلام باعتباره آخر الأديان ، أن يضع الخطوط العريضة لتعايش إيماني نواته الصلبة الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، وهي عقيدة الإسلام ، كما هي عقيدة المسيحية وعقيدة اليهودية ، فإذا كانت الحقيقة الجوهرية الحاكمة وهي وجود الله ، وأنه واحد ، فلا يمكن تبرير الاختلافات الحادة التي تصل إلى الحروب والاستئصال إلا بعوامل ذاتية خالصة ألصقت بالأديان أو اتخذتها غطاءً (أيديولوجيًا) ، ويجب على الذين يؤمنون إيمانًا قلبيًا حقيقيًا بوجود الله الواحد لكل الأديان أن لا يسمحوا لاختلافات مذهبية أن تطمس تلك الحقيقة ، أو أن تؤثر على ما توجبه ، وعلى كل حال ، فمن الممكن أن يحتفظ كل ذي دين باختلافاتهم لأنفسهم وليشاركوا الآخرين في إقامة أممية إيمانية يمكن أن تجابه العولمة المتوحشة وتقفها حتى لا تقضي قضاءً مبرمًا على الأديان جميعًا وما توحيه من قيم ، إن الإسلام جاوز مرحلة المشاركة إلى مرحلة الوحدة عندما وجه المسلمين لأن يقولون ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [فصلت : ٤٦] .